الباب الأوَّل ١-١

التراث الطِّبِّيُّ العربيُّ

١- العرب والحضارة قبل الإسلام: ١-١-١

اعتاد المؤرِّخون أنْ يقسِّموا تاريخَ العربِ إلى قسمين:

ما قبل الإسلام، أيْ: الجاهليَّة.

وما بعده، أيْ: عصر النَّهضة العربيَّة التي بدأت ببزوغ فجر الإسلام في هذه المنطقة من العالم.

وباستثناء أعمالٍ معدودةٍ[١] فإنَّ تاريخ العرب قبل الإسلام لم يَنَلْ حظَّهُ من الدِّراسةِ والاهتمام، وعلى ذلك فإنَّنا لا نعرف إلَّا القليل عن الحالة العقليَّة للعرب في عصر الجاهليَّة، وسبب ذلك أنَّنا لا نأخذُ في حسابنا أمرين اثنين:

أولهما: وصولُ العرب إلى أقصى بلاد الشَّام والجزيرة الفراتيَّة والعراق شمالًا مع بقائهم على صلةٍ دائمةٍ بموطنهم في الجنوب، واحتكاكهم بالحضارة السُّريانيَّة التي كانت مزدهرةً في هذه البلدان كُلِّها ومن قبلها بالحضارة الآراميَّة التي سادت المنطقة قبل ظهور المسيحيَّة فيها، إضافةً إلى أنَّ العربَ أقاموا دولًا عديدةً في هذه المناطق[٢]، كما احتكُّوا احتكاكًا شبه مستمرٍّ بالمدن[٣] المزدهرة هناك.

و**ثانيهما:** أنَّ العربَ كانت لهم حضارةٌ قديمةٌ في اليمن، لم تغِبْ عن الوجود بانهيار سَدِّ مأرب بل استمرَّتْ مظاهرُها في كُلِّ مناحي الحياة العقليَّة.

١- أهمُّها كتاب جواد علي: (تاريخ العرب قبل الإسلام).
بغداد. (١٩٥٠-١٩٦٠). الطبعة الأولى. ثمانية أجزاء.

٢- في شرقي أنطاكية وفي الرُّها والحَضَر وتَدْمُر على سبيل المثال.

٣- نَصيبين وحرَّان وآمد مثالًا.

ومن غير المقبول أنْ يتحدثَ المؤرِّخون عن دولةٍ وحضارةٍ في اليمن دام ازدهارُها عدَّةَ قرونٍ، وكانت على صلةٍ بمصر وفارس والحبشة، وأنْ يصمتوا عن المستوى الرَّفيع الذي وصلته في مجالاتٍ عديدةٍ، منها إنجازاتها في العَمارة وفي نظام الرَّيّ وبناء السُّفن على سبيل المثال.

- شعبٌ بلا طِبٍّ!

من جملة المسائل المسكوت عنها: الطِّبُّ في اليمن قبل الإسلام، بل وقبل المسيحيَّة، ألم يكن لأهل اليمن طِبٌّ كغيرهم من الأمم؟ طِبٌّ محليٌّ؟ وهل تعلَّمَ أهلُ اليمن شيئًا من علومِ الطِّبِّ من مصر القديمة؟ وهكذا تكثرُ الأسئلة التي تنتظر بحثًا تاريخيًّا حقيقيًّا يتَّسم بالموضوعيَّة.

ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ المؤرِّخين يتحدَّثون عن الوجود البيزنطيّ في الشَّام والوجود الفارسيّ في العراق، وعن الفرات بوصفه حاجزًا طبيعيًّا بين الإمبراطوريتين، ويتحدَّثون عن الحروب الفارسيَّة البيزنطيَّة، وعن آثارها المدمّرة في مجالات الزِّراعة والتِّجارة والصِّناعات والحرف، ويصمتون عن مظاهر هذا النَّشاط الإنسانيّ الذي لم تكن أراضي دويلتي المناذرة والغساسنة بعيدة عنه، كما يصمتون عن مسألة: كيف تأثَّرت هاتان الدويلتان بالفرس والبيزنطيين؟ وكيف تعايش العربُ في مناطق نفوذ هاتين الدويلتين مع سكان البلاد الذين يمثّلون الحضارةَ السُّريانيَّة، أيْ: الحضارة الآراميَّة في مرحلتها الثانية[1]؟ أيْ: الحضارة الهِلنستيَّة في مرحلتها البيزنطيَّة المتأخرة؟

١- كانت الحضارة السُّريانيَّة استمرارًا للحضارة الآراميَّة، بعد أنْ اعتنقت هذه المنطقةُ من العالم المسيحيَّةَ وصارت لهجةُ الرُّها الآراميَّةُ هي اللهجة السَّائدة في الفترة المسيحيَّة، وسُمِّيت بالسُّريانيَّة. وكانت السِّمَةُ الأساسيَّة لهذه الحضارة هي الهِلنستيَّة؛ أيْ: الحضارة التي شارك فيها الهيلينيون (الإغريق) إلى جانب شعوب الشَّرق، وقد استمرَّت هذه المرحلة من تاريخ الحضارة حتى بدء المرحلة الإسلاميَّة من تاريخ هذه البلاد.

٢- الطِّبُّ السُّريانيُّ قبل الإسلام: ١-١-٢

من الثابت أنَّ السُّريان ترجموا إلى لغتهم بعضَ أهَمِّ كتب الطِّبِّ الإغريقيَّة[١]، وهذا يعني أنَّهم مارسوا الطِّبَّ، ليس بوصفهم ورثةَ الطِّبِّ الشَّرقيِّ القديم طِبِّ الحضارات العريقة[٢] فحسب، بل أيضًا بوصفهم مطَّلعين على طِبِّ الإغريق الذي جاء إلى المنطقة مع الإسكندر المقدوني وعاش فيها ألف عام[٣].

ثمَّ ألا يعني ذلك أنَّ الطِّبَّ السُّريانيَّ المتأخرَ، أيْ: طِبَّ القرنين السَّادس والسَّابع الميلاديين كان معروفًا للعرب، من الناحية **العمليَّة** على الأقلِّ، إنْ لم نقل من الناحية **النَّظريَّة؟** وذلك نتيجةً لاتِّصال العربِ بالسُّريان واحتكاكهم بهم في الحياة اليوميَّة في مدن الشَّام والعراق، نعني بذلك الناحية **السَّريريَّة**، أيْ: المُمارسة الطِّبِّيَّة اليوميَّة.

هذه أمثلةٌ عن موضوعاتٍ ينبغي أنْ يهتمَّ بها المثقفُ العربيُّ عمومًا، والمَعنيُّ بتاريخ الحضارةِ العربيَّة خصوصًا.

وعلينا أنْ نعترفَ بأنَّ العملَ في مجالات البحث عن معظم هذه القضايا ما يزال في بداياته.

١- لعَلَّ أهمَّها (الملخّصات) (Summaria) التي نقلها سرجيوس الرأسعينيّ (ت٥٣٦م) من اليونانيَّة إلى السُّريانيَّة. وفي هذه الملخّصات اختصارٌ منهجيٌّ للطِّبِّ النَّظريِّ الإغريقيِّ (Theorie) اعتمادًا على عشرين كتابًا، أربعةٌ منها لإبقراط، والباقية لجالينوس، وقد أطلق العرب على هذه الملخصات اسم (جوامع الإسكندرانيين).

٢- حضارة ما بين النَّهرين (Mesopotamia)، أيْ: حضارة الأكاديين والبابليين والآشوريين، وحضارة بلاد الشام، أيْ: حضارة الأموريين والكنعانيين والفينيقيين، التي تظاهرت بما يُسمَّى الحضارة الآراميَّة، التي صارت الحضارة السُّريانيَّة استمرارًا لها.

٣- القرون الثلاثة قبل الميلاد، والقرون السبعة بعده.

٣- الأطباء السُّريان في بدايات الإسلام: ١-١-٣

هذا كُلُّهُ عن الحياة العقليَّة عند العرب قبل الإسلام، أمَّا بعد ظهور الإسلام، والبدء في بناء دولة الخلافة فإنَّ (عصر التَّرجمة) هو الدَّليل القاطعُ على أنَّ الرِّجال الذين قاموا بعملية البناء كانوا يعرفون أهميَّة عملهم، وأنَّهم ساروا على الطَّريق الصَّحيح، وهو نقلُ حضاراتِ الأمم السَّالفة والأمم المجاورة إلى دولتهم، والاطِّلاع على معارف هذه الأمم وثقافاتها وفنونها وعلومها، فهكذا تُبنى الدُّول.

وقد صار معروفًا اليوم أنَّ عملية ترجمة العلوم من لغات الأمم الأخرى لم تبدأ في العصر العبَّاسيّ بل في العصر الأمويّ (المروانيّ)[١]، وأنَّ ترجمةَ الطِّبِّ إلى العربيَّة بلغت ذروة نشاطها في عصر حنين[٢] أي بدءًا من عصر المأمون (حكم من ١٩٨-٢١٨هـ=٨١٣-٨٣٣م) ومرورًا بعصر المتوكل (حكم من ٢٣٢-٢٤٧هـ=٨٤٧-٨٦١م) وبعده قليلًا.

وصار معروفًا أيضًا أنَّ هذه الحركة لم تكن لتعني مسؤولية الدَّولة فحسب، بل إنَّ أفرادًا كثرًا قاموا بجهودٍ كبيرةٍ في تنشيط هذه العملية.

لقد كان مستوى الطِّبِّ في مصر وبلاد الشام والعراق وبخاصَّةٍ في الإسكندرية والرُّها ونَصيبين وجُنْديسابور أيام الفتح الإسلاميّ مستوًى عاليًا، ففي هذه المدن -على سبيل المثال- كان ثمَّةَ مدارس تعلِّم الطِّبَّ من جملة مناهجها ومقرراتها الأخرى. أمَّا المُمارسة الطِّبيَّة في المدن الكبرى فيشهد لها وفرة عدد

١- بدأت على يد خالد بن يزيد بن معاوية. وأعطت أولى ثمراتها في حقل الطِّبِّ أيام عمر بن عبد العزيز (حكم من ٩٩-١٠١هـ=٧١٧-٧٢٠م)، بظهور الترجمة العربية لكُنَّاش أهرن القسّ على يد ماسرجويه البصري. (لم يخرج هذا الكتاب للناس إلَّا حوالي عام (٧٢٠م) سنة وفاة عمر بن عبد العزيز).

٢- منتصف القرن التاسع الميلاديّ. عاش حنين بين (١٩٤-٢٦٠هـ =٨٠٨-٨٧٣م).

الأطبَّاء ومقدرتهم المشهود لها في مدن الشَّام منذ بدايات العصر الأمويّ. وقد حفظ لنا التاريخ أسماءَ عددٍ من هؤلاء الأطبَّاء الذين عاشوا أيام معاوية بن أبي سفيان –مثالًا–، كما حفظ لنا أسماء الكتب التي كتبها بعضُهم بالسُّريانيَّة أو بالعربيَّة[1].

إنَّ معرفةَ الأطبَّاء السُّريان في العصر الأمويّ وفي بدايات العصر العبَّاسيّ لحقيقة أنَّ السُّريان تعلَّموا كثيرًا من الطِّبِّ اليونانيّ حينما ترجموه إلى لغتهم قبل الإسلام، ولحقيقة أنَّ الطِّبَّ النَّظريَّ له أهميةٌ خاصَّةٌ، إذ إنَّه بدون معرفة الطِّبِّ النَّظريّ لا يكون فهم الطِّبِّ العمليّ سهلًا أو أنَّه قد لا يكون ممكنًا، إنَّ معرفة الأطبَّاء السُّريان لهاتين الحقيقتين هو الذي شجَّعهم على استمرار الجهد في سبيل ترجمة الطِّبِّ اليونانيّ إلى اللُّغة السُّريانيَّة في ظِلِّ الإسلام، وقد كان لهاتين القناعتين انعكاسٌ إيجابيٌّ على رجال الدَّولة في بدايات العصر العبَّاسيّ.

أخذت التَّرجمات الطِّبِّيَّة في بدايات العصر العبَّاسيّ شكلين:

أولهما: ترجمة النَّصّ من الإغريقيَّة إلى السُّريانيَّة في مرحلةٍ أولى، ثمَّ ترجمته إلى العربيَّة في مرحلةٍ ثانية.

ثانيهما: ترجمة النَّصّ من الإغريقيَّة إلى العربيَّة مباشرةً ثمَّ ترجمة بعض الأعمال المختارة من العربيَّة إلى السُّريانيَّة في مرحلةٍ ثانيةٍ بناءً على طلبِ عالِمٍ سُريانيٍّ كان يحبُّ أنْ يحصلَ على النَّصّ بلغته الأمّ على الرّغم من أنَّه كان يعرفُ العربيَّة جيدًا، بل إنَّ بعضهم كان يتقنها.

١– أحدهم عيسى بن حكم المشهور بـ(مسيح الدِّمشقيّ) الذي عاش في أواخر العصر الأمويّ ولحق الرشيد وقدَّمَ له كتابًا وصل إلى أيامنا، وعرف باسم (الرِّسالة الهارونيَّة) في الطِّبِّ.

إذا عرفنا كُلَّ هذا أدركنا أنَّ حركة الترجمة الطِّبيَّة من اليونانيَّة إلى العربيَّة لم تكن سببًا في ازدهار الطِّبِّ في بغداد أيام العبَّاسيين، ذلك أنَّ الطِّبَّ كان مزدهرًا قبل ذلك في كُلِّ الأقطار المحيطة ببغداد، بل كانت نتيجةً لهذا الازدهار، فلو لم يكن أطبَّاء دمشقَ وبغداد يعرفون مكانة الطِّبِّ اليونانيِّ، مَا اقترحوا ترجمته ومَا ترجموه، وبطبيعة الحال فإنَّ حركة التَّرجمة هذه كانت حالةً خاصَّةً يندر أنْ تتكرَّر في التاريخ، فقد حصل العرب في سنواتٍ قليلةٍ على خلاصةٍ وافيةٍ لكُلِّ ما بقيَ من التُّراث الطِّبيِّ الإغريقيِّ، وكتبوه بلغتهم لأنَّهم أحسنوا القيام بعملية ترجمةٍ نادرة المثال من حيث دقَّتُها في تاريخ الطِّبِّ كلِّهِ.

٤- مساهمة بلادنا في تطوّر الطِّبِّ: ١-١-٤

لقد حدثت في بلادِنا خطواتٌ مُهمَّةٌ في تاريخ الطِّبِّ، ثلاثَ مرَّاتٍ:

أ- كانت الأولى في الإسكندرية في القرنين السَّادس والسَّابع الميلاديين لمّا أدرك أساتذةُ الطِّبِّ في مدرسة الإسكندرية خطورة توقُّف عملية التأليف والإبداع في الطِّبِّ النَّظريِّ لعِدَّة قرونٍ، فهذا التَّوقّف يؤدِّي إلى جمود المعرفة الطِّبيَّة، ويحوِّل الطِّبَّ من علمٍ له تطبيقاته العمليَّة، إلى ممارسةٍ قائمةٍ على الحفظ والتَّقليد، لذلك قرَّروا أنْ يبعثوا الطِّبَّ النَّظريَّ من رقاده فقاموا بعملية تلخيص بعض كُتُب إبقراط وجالينوس، وجعلوا منها مقرَّراتٍ لتدريس الطِّبِّ النَّظريِّ وفق منهجٍ واضحٍ للتعليم. وهذا الذي أدركه أساتذة الإسكندرية سبقوا فيه زملاءهم في حواضر العالم الأخرى تلك الأيام في أثينا وروما والقسطنطينية.

ب- والمَرَّة الثانية التي قامت بلادنا فيها بإحدى أهَمِّ عمليات تطوير الطِّبِّ هي أنَّ سرجيوس نقل هذه (الملخَّصات) الطِّبيَّة من اليونانيَّة إلى السُّريانيَّة، بينما ظَلَّ زملاؤه في مدن العالم الأخرى عاجزين عن فهم معنى هذه (الملخَّصات). وظَلَّت هذه الملخَّصات غائبةً عن عالم الطِّبِّ في اليونان وإيطاليا وآسيا الصُّغرى،

بينما انتشرت بفضل التَّرجمة السُّريانيَّة من (رأس العين) إلى مدن الشَّام والعراق. وبخاصَّةٍ نَصيبين والرُّها ووصلت إلى جُنْديسابور.

ج- والمَرَّة الثالثة كانت فيها عملية ترجمة هذه (الملخَّصات) من السُّريانيَّة إلى العربيَّة في بغداد بفضل حنين بن إسحق[1] الذي أعطاها اسم (جوامع الإسكندرانيين)، والجوامع هنا بمعنى (المختصرات)، لكنْ هذه المرَّة كانت الخطوة أشمل:

فحنين مع زملائه وتلامذته، **ترجموا هذه الملخصات**، كما ترجموا أصولها الإغريقيَّة بعد أنْ حقَّقُوها تحقيقًا علميًّا صحيحًا بمقارنة المخطوطات المختلفة التي وصلت إليهم، ثمَّ **شرحوا هذه الأصول**.

وفي كُلِّ مرَّةٍ كانوا يعثرون فيها على كتابٍ لجالينوس يشرحُ فيه كتابًا لإبقراط، كانوا يترجمون شرحَ جالينوس، ثُمَّ يترجمون الأصلَ الذي كتَبَه إبقراط، وقد يلخِّصون هذا الشَّرحَ أو هذا الأصل، وقد يعيدون شرح هذا الأصل أو يشرحون ما كتبه جالينوس.

وبذلك استوعب العربُ الطِّبَّ اليونانيَّ بقسميه النَّظريّ والعمليّ، وهضموه وتمثَّلوه، ونشروه في طول البلاد وعرضها، فوصلت أعمال الأساتذة الإغريق إلى أقصى الأرض مترجمةً إلى العربيَّة[2].

ومن أهمِّ من ساهم في نقل الطِّبِّ اليونانيّ وتلخيصهِ ثابت بن قُرَّة (ت٢٨٨هـ=٩٠١م) العالم الرِّياضيُّ والفلكيُّ الشَّهير، الذي جاء من حرَّان إلى بغداد وهو في أوج شهرته، وكذلك قُسطا بن لوقا (ق٣هـ-ق٩م).

وقد استمرَّت عملية تلخيص الأعمال الطِّبِّيَّة اليونانيَّة ووضعها في قالبٍ عربيٍّ واضحٍ إلى أيام أبي الفرج عبدالله بن الطَّيّب[3] الذي توفي بعد حنين بأقلَّ من قرن.

١- عاش حنين بين (١٩٤-٢٦٠هـ=٨٠٨-٨٧٣م). وعمل بشكلٍ رئيسيٍّ في بغداد.

٢- يشهد ابن سينا (في نهاية القرن العاشر الميلاديّ) بأنَّه يعرف مدى غنى مكتبة بخارى بهذه الكتب الطِّبِّيَّة اليونانيَّة الأصل المكتوبة بالعربيَّة، أيام السامانيين.

٣- عبد الله بن الطَّيّب: (ت٤٣٥هـ=١٠٤٣م).

العربُ إذًا تعلَّموا الطِّبَّ العمليَّ من السُّريان، وشاركوا في عملية ترجمة الطِّبِّ ونقله إلى العربيَّة، في وقتٍ كان فيه الطِّبُّ اليونانيُّ مهدَّدًا بالضَّياع. وهم بذلك حفظوا الطِّبَّ اليونانيَّ وأوصلوه إلى الأجيال الآتية أيام ازدهار العرب وبعد ذلك. فعن طريق العربيَّة وصل الطِّبُّ القديم الذي حفظه الإغريق في مؤلَّفاتهم إلى أواسط آسيا وإلى قلب شبه القارة الهنديَّة وإلى إفريقيا وإلى الأندلس.

وهكذا برهن العربُ عمليًّا على حقيقة أنَّ العلمَ تراثٌ للبشرية جمعاء –بما فيه الطِّبُّ– وأنَّه نتاجُ جهود كُلِّ الشُّعوب وكُلِّ الحضارات.

♣ ♣ ♣

إذا كنَّا في هذه الصَّفحات القليلة قد أشرنا من بعيدٍ إلى أهمية مدرسة الإسكندرية الطِّبيَّة وإلى أهمية بعض مدارس الشَّام، فإنَّه لا بُدَّ أنْ نشيرَ إشارةً عابرةً أيضًا إلى مدرسة جُنْدِيسابور.

ففي هذه المدينة تكوَّنَ مركزٌ علميٌّ هِلينستيّ منذ أسرَ ملكُ الفرس ملكَ الرُّومان[1] ومعه عددٌ كبيرٌ من أهلِ العلم والصِّناعة والحِرف، ممن يعرفون اليونانيَّة أو الآراميَّة أو يعرفون اللُّغتين.

ومع الزَّمن تطوَّر هذا المركز، وبخاصَّةٍ حينما جَاء إليه أولًا أتباع نسطوريوس من مدرسة الرُّها، وثانيًا حينما لجأ إليه فلاسفةُ مدرسة أثينا بعدما أغلق جستنيان[2] هذه المدرسة.

وفي هذا المركز بُنيَ بيمارستان كان أطبَّاؤه –بطبيعة الحال– يعرفون الآراميَّة، وربَّما الإغريقيَّة، وفي هذا البيمارستان قام بعض الأطبَّاء بعملية تدريس

١– الإمبراطور فاليريان.

٢– جستنيان (Justinian) عاش بين (٤٨٣–٥٦٥م)، وحكم من (٥٢٧–٥٦٥م).

الطِّبِّ سريريًّا على فراش المريض، وهذه أوَّل مَرَّةٍ في التاريخ يجري فيها تدريبٌ للأطبَّاء خارج العيادة الخاصَّة.

في جُنْديسابور إذًا تحوَّل الطِّبُّ من (مهنةٍ) أو (صنعةٍ) يتعلَّمها المرءُ من أبيه، إلى (دراسةٍ)، يتعرَّفُ الطالب فيها على عددٍ أكبر من الأساتذة، ويتدَّرب على معالجة عددٍ أكبر من المرضى.

وفي الحقيقة: إنَّ هذه الخطوة في تاريخ الطِّبِّ لم تأخذ حقَّها بعد من البحث والدِّراسة، إلَّا أنَّ بيمارستان بغداد التَّعليميَّ الذي بُنِيَ أيام الرَّشيد أسَّسه أساتذةٌ من جنديسابور[1] وأشرفوا عليه، على إدارته وعلى التَّعليم فيه.

إذا صَحَّ ما ذهبنا إليه، ولو جزئيًّا، لَحَقَّ لنا أنْ نقول: إنَّ خطوتينِ من أهمِّ خطوات تطوّر الطِّبِّ تمّتا في بلادنا:

أوَّلهما: الدِّراسة الطِّبيَّة النَّظرية القائمة على أساس منهجٍ واضحٍ ومقرراتٍ محدَّدةٍ، وذلك في الإسكندرية.

وثانيهما: الدِّراسة السَّريريَّة التي تلي الدِّراسة النَّظريَّة، في مشفًى تعليميٍّ، وذلك في جُنْديسابور.

الخطوة الأولى، وهي نشر أسلوب التَّعليم النَّظريّ، التي بدأت من رأس العين، أخذت مداها الحقيقيّ والمؤثِّر بعد أنْ ترجَمَ حنين (جوامع الإسكندرانيين)، أيْ من بغداد.

والخطوة الثانية، وهي نشر أسلوب التَّعليم السَّريريّ التي بدأت من جنديسابور، أخذت مداها الحقيقيَّ والمؤثِّر بعد أنْ بنى الرَّشيدُ المشفى التَّعليميَّ في بغداد الذي عُرِفَ باسم البيمارستان، أيْ من بغداد أيضًا.

١- جبرائيل بن بُختيشوع (ت٨٢٧م). ينظر سزكين: (٣/٢١٠، ٢٢٦).

والخطوتان اللّتان بدأ زخمهما الحقيقيُّ من بغداد بدأتا في القرن التاسع الميلاديّ.

هنا تكمن أهمية القرن التاسع في تاريخ الطِّبِّ، تاريخ الطِّبِّ العامِّ وليس تاريخ الطِّبِّ العربيِّ فحسب.

وهنا تكمن أهمية مؤلِّفٍ مثل ابن ماسويه، الذي تعلَّمَ في مشفى بغداد، والذي رعاه ابن بُختيشوع، والذي كانت السُّريانيَّة لغتَه الأمّ، والذي كان يتقن العربيَّة.

٥- تأسيس طِبِّ العيون في الإسلام: ١-١-٥

نعرفُ اليوم كيف استخلصَ حنين بن إسحق المادَّة العلميَّة في طِبِّ العيون من كُتُب جالينوس المختلفة[١].

ونعرف كذلك كيف أضاف الرازي إلى ما كتبه حنين خلاصةً لمادَّةٍ علميَّةٍ من مصادر مختلفةٍ[٢]، ونعرف كذلك كيف استند عليّ بن عيسى[٣] على هذه المصادر كُلِّها وكتب كتابه (تذكِرة الكَحَّالين) الذي صار (قانونًا)[٤] لأطبَّاء العيون العرب طيلةَ الفترة التي ألَّف العربُ فيها؛ أيْ إلى القرن الثامن عشر الميلاديّ[٥].

١- الفضل في ذلك يعود إلى مايرهوف الذي أحصى في مقدِّمته لتحقيق كتاب (العشر مقالات) ما يقرب من العشرين من هذه الكتب؛ منها: (في منافع الأعضاء)، و(في البرهان)، و(في الصِّناعة الطِّبيَّة)، و(في حفظ الصِّحة)، و(في العِلَل والأعراض).

٢- أهمُّها الترجمات العربيَّة لكُتُب الإغريق، ومنهم روفوس وبولص وأهرن... إلخ.

٣- يُنظر: هيرشبرغ، تاريخ: (ص٢٢). تاريخ أطباء العيون العرب: (٦٠/١).

٤- كان هيرشبرغ مِن أول مَن قال بأنَّ (تذكِرة) عليّ بن عيسى الكَحَّال صارت (قانونًا) لأطبَّاء العيون العرب.

٥- آخر كتابٍ مُهِمٍّ كتبه العرب اعتمادًا على تراثهم هو كتاب عبد المسيح الكَحَّال الحلبيّ (الكامل في طِبِّ العين). يُنظر: تاريخ أطبَّاء العيون العرب: (١٥/٢).

لم يكن العرب واقعين تحت التَّأثير الطِّبِّيّ للسُّريان فقط، فالسُّريان كان لهم نفوذهم في بلاد الشَّام كُلِّها، لكنَّ أجزاء مُهمَّةً من العراق كانت يومها تحت التأثير الفارسيّ كما نعلم.

وعلى ذلك فإنَّ العربَ نقلوا عن الفرس، كما نقلوا عن السُّريان، قبل أنْ ينقلوا عن الإغريق.

ودليلنا على ذلك أنَّ العربَ حينما ترجموا الطِّبَّ اليونانيَّ من اللُّغة الإغريقيَّة إلى اللُّغة العربيَّة، استعملوا بعض الكلمات الفارسيَّة التي كانت تعني اسمًا لأحد الأمراض، مفهومًا لدى عامَّة الناس من العرب الذين كانوا على اختلاطٍ بالفرس لزمنٍ طويلٍ، وجعلوا من هذه الكلمة الفارسيَّة، بعد أنْ عرَّبوها (اصطلاحًا) أزالوا به عجمة الاصطلاح اليونانيّ.

فعلى سبيل المثال: صار (فرانيطس)[1] الاصطلاحُ اليونانيُّ الذي يعني ذلك الزَّمن (التهابَ الدِّماغ) أو (التهاب غِشاء الدِّماغ)؛ صار (سِرسامًا) وهي كلمةٌ فارسيَّةٌ يعرفها العرب جيّدًا قبل عصر التَّرجمة بزمنٍ طويلٍ. وإذا أردنا أنْ نأتيَ بمثالٍ آخر –ولكنْ من حقل علم العين– فإنَّ اصطلاحَ (نوقطالبوس) اليونانيّ الذي يعني (العَشَا) أو (العَشاوة) أيْ: (العمى اللَّيلي)، صار (شَبْكرةً) وهي صيغةٌ عربيَّةٌ مأخوذةٌ من (شَبكور) التي تعني (الأعشى) أو (الأعمى في اللَّيل). فالعرب عرَّبوا الاصطلاحَ العلميَّ الفارسيَّ **وأزالوا به عُجْمَةَ الاصطلاح اليونانيّ**[2]، لأنَّ الاصطلاحَ الفارسيَّ كان مفهومًا لعامَّة الناس، فالناس أو الأطبَّاء اقترضوه من الفَارسيَّة لأنَّه اصطلاحٌ شائعٌ ومفهومٌ ومقبولٌ، وذلك منذ زمنٍ طويلٍ قبل عصر الترجمة.

١– وليس قرانيطس (بالقاف)، كما يكتب كثير من المحققين، فالصحيح هو (الفاء)، والأصل إغريقي.

٢– تعبيرٌ دقيقٌ استعمله الأستاذ إبراهيم بن مراد.

٦- كيف ندرس تاريخ الطِّبّ العربيّ؟١-١-٦

إنَّ مُهِمَّة دراسةِ (علم العين) عند العرب هي مثالٌ بسيطٌ لدراسة (الطِّبِّ) عمومًا.

فتأصيل (المعلومات) التي كتبها المؤلِّفون العربُ بوصفها (حقائق علميَّةً) يستدعي معرفةً باللُّغة اليونانيَّة القديمة -لغة ذلك العصر-، ومعروفٌ أنَّ لغةَ اليونانيين قد تطوَّرت كثيرًا بين عصر إبقراط (القرن الخامس ق.م) وعصر جالينوس (القرن الثاني الميلادي)، كما تطوَّرت أيضًا بين عصر جالينوس وعصر بولص (القرن السابع الميلادي).

ولا تقتصر هذه المعرفة المطلوبة على اللُّغة إجمالًا بل تستدعي معرفةً باللُّغة الطِّبيَّة واصطلاحاتِها، وهذا يستدعي بدوره معرفةً ما بحقائق الطِّبِّ، ونظرياته، فالحقائق ثابتةٌ لكنَّ النَّظريات تتغيّر، تتغيّر النَّظرياتُ إلى جانب تغيّرٍ ما في اللُّغة ناجمٍ عن تطوّر هذه اللُّغة الذي هو أمرٌ طبيعيٌّ.

وإذا أردنا أنْ يأخُذَ العملُ العلميُّ مداه الحقيقيَّ فإنَّه ينبغي أنْ يشارِكَ فيه إلى جانبِ العارفين باليونانيَّة القديمة زملاءُ جددٌ بعضهم يعرف الفارسيَّة القديمة، وبعضهم يعرف السُّريانيَّة القديمة.

فالعرب نقلوا عن الإغريق -هذا صحيحٌ- لكنَّهم تأثّروا بالتراث السُّريانيّ، وبالتراث الفارسيّ إلى حدودٍ معينةٍ ظَلَّت محدودةً بالمقارنة بتأثُّرهم بالتراث الإغريقيّ.

ولذلك فإنَّ بدايةَ البحث يجب أنْ تكونَ مقارنةَ (الحقائق!) التي كتبها العرب (بالحقائق!) التي كتبها الإغريق، وهذه وحدها مُهمَّةٌ تفوق قدرةَ الأفراد عمومًا

وتستدعي اهتمام (مؤسَّساتٍ) معينةٍ في الجامعات أو تستدعي وجودَ (مراكز بحثٍ) متخصِّصةٍ.

وهذا يدعونا إلى أنْ نشيرَ إلى الأعمال المختلفة التي قام بها علماءُ بجهدهم الفرديّ، وحقَّقوا فيها بعض أهمّ كُتُب التُّراث الطِّبيّ العربيّ، والتي ينبغي أنْ يشار إليها وأنْ يشادَ بها، ذلك أنَّها –حتى الآن– هي كُلُّ ما يمكن لنا أنْ نعودَ إليه لدراسة تاريخ الطِّبِّ العربيّ[١]، فالمؤسَّسات التي نأمل أنْ تبدأَ عملها، ما تزال في مرحلة الولادة.

وإذا تجاهلنا هذه الأعمال، فليس أمامنا إلَّا أنْ نعودَ إلى المخطوطات، أيْ إلى المصدر الحقيقيّ للمعرفة.

٧– علماء الغرب والطِّبُّ العربيّ: ١–١–٧

بدأ العلماء الغربيون يكتبون عن (الطِّبِّ العربيّ) منذ أواسط القرن الثامن عشر[٢]، أمَّا قبل ذلك فقد كان الغربيون يترجمون الطِّبَّ العربيَّ ليتعلَّموا منه.

بدأ الغربيون بترجمة الطِّبِّ العربيّ لكي يكون مصدرًا علميًّا لهم منذ أيام قسطنطين الإفريقيّ[٣] في سالرنو في القرن الحادي عشر. ووصلت حركة ترجمة

١– على سبيل المثال: كتاب (فردوس الحكمة في الطِّبِّ) لعليّ بن سَهْل (رَبَّن) الطَّبريّ، أبو الحسن. تحقيق: محمّد زبير الصديقي، حقِّقَ عام (١٩٢٨).
– كتاب: (تذكِرة الكَحَّالين) لعلي بن عيسى. تحقيق: غوث محيي الدين القادري الشرفي، حقِّقَ عام (١٩٦٤).

٢– يمكن أنْ نعدَّ ظهور كتاب لوسيان لوكلير، الخطوةَ الجدِّيَّة الأولى على طريق التأريخ للطِّبِّ العربيّ.

٣– ومن أهمّ ترجماته كتابُ (كامل الصِّناعة الطِّبِّيَّة) لعليّ بن عبّاس المجوسي (ق١٠م).

الطِّبِّ العربيِّ إلى اللاتينيَّة ذروةَ نشاطِها في طليطلة في القرن الثاني عشر[1]، لكنَّها استمرَّت هنا وهناك في أوربا اللاتينيَّة حتى أيام الپاغو (Andrea Alpago) الذي عاشَ في الشَّام ثُمَّ عاد إلى پادوا (Padua) بزادٍ علميٍّ دسمٍ.

أخذ الاهتمام الأوربيُّ بالتأريخ للطِّبِّ العربيِّ مناحيَ عديدةً؛ فبعضهم كتَبَ عن المخطوطات الطِّبيَّة العربيَّة المحفوظة في المكتبات الأوربيَّة، ومنهم من ذكر وجودها ذكرًا أو وصفها وصفًا سريعًا، ومنهم من اهتمَّ بمحتواها، وبعضهم ترجمَ بعض هذه المخطوطات، أو ترجمَ فصولًا منها، وبعضهم اهتمَّ بالتَّرجمات اللاتينيَّة لهذه الأصول العربيَّة، وبعضهم قارن محتوى بعض الكُتُب العربيَّة بأصولها اليونانيَّة، وهكذا.

وكان هيرشبرغ قد لفت الأنظار إلى أنَّ علمَ (تاريخ الطِّبِّ) الحديث بدأ عام (١٦٩٦) بظهور كتاب دانييل لوكلير (Daniel Leclerc) (Histoire de la medecine) في جنيف (Genève). وتبعَهُ ثلاثة كتبٍ في القرن الثامن عشر، وما يقارب العشرين كتابًا في القرن التاسع عشر.

أمَّا كتابة (تاريخ طِبِّ العيون) فقد بدأت عام (١٨٧٧) بظهور كتاب هيرش (August Hirsch) ولم يظهر في القرن التاسع عشر إلَّا خمسة كتبٍ من هذا النوع.

أ- دور هيرشبرغ في كتابة تاريخ طِبِّ العيون العربيّ:

حينما بدأ هيرشبرغ بكتابة (تاريخ طِبِّ العيون) العامِّ لم يكن متاحًا له إلَّا أعمالٌ قليلةٌ متخصِّصةٌ بالطِّبِّ العربيِّ، لذلك اعتمد في بحثه عن المعرفة على (المخطوطات) التي كان قسمٌ كبيرٌ منها محفوظًا في باريس. وفي كثيرٍ من

١- أيام جيرار الكريموني.

الأحيان تمكَّن هيرشبرغ من الحصول على التَّرجمات اللاتينيَّة لبعض كُتُب الطِّبِّ العربيَّة. فعلى سبيل المثال: تمكّن من رؤية التَّرجمة اللاتينيَّة لكتاب (الحاوي) للرازي (ق٣-٤هـ=٩-١٠م).

وأهمية هذا الكتاب، أنَّه غنيٌّ بالمقتبسات التي انتقاها الرازي، وقد جمعها من كُلِّ ما كان متوفرًا في عصره من ترجماتٍ عربيةٍ لكُتُب الإغريق، أو من مؤلَّفاتٍ عربيَّة أصيلةٍ.

وفي التَّرجمة اللاتينيَّة (للحاوي) ثمَّةَ مقتبساتٌ كثيرةٌ منسوبةٌ لحنين، وقد كان هيرشبرغ يعرفُ كتابًا -في العين- منسوبًا لجالينوس[1]، وكتابًا آخر في العين أيضًا منسوبًا لقُسطنطين الإفريقيّ، وكِلاهما مطبوعٌ، وباللُّغة اللاتينيَّة.

بمقارنة هذين الكتابين بمقتبسات الرازي عن حنين تبيَّن لهيرشبرغ أنَّ هذين الكتابين اللاتينيين ما هما إلَّا كتابُ حنين المحفوظ جزئيًّا في (الحاوي) والذي لم يكن هيرشبرغ قد رآه بنصِّهِ العربيّ.

تمكَّن هيرشبرغ بذلك من البرهنة على أنَّ كتابَ حنين في العين (العشر مقالات) كان قد تُرْجِمَ مرَّتين إلى اللاتينية ونُسِبَ إلى قسطنطين الإفريقيّ مرَّةً، بينما نَسَبَ آخرون التَّرجمةَ الأخرى إلى جالينوس.

كتاب قسطنطين الإفريقيّ -في العين- إذًا ما هو إلَّا ترجمةٌ لاتينيَّةٌ لكتاب حنين (العشر مقالات)، والكتاب الآخر المنسوب لجالينوس كذلك، كتاب حنين، وقد تُرْجِمَ من العربيَّة إلى اللاتينيَّة.

بعد ذلك ترجم هيرشبرغ بعضَ أهَمِّ الأعمال العربيَّة في طِبِّ العين إلى اللُّغة الألمانيَّة وعلَّق عليها وأغناها بملاحظاتٍ علميَّةٍ شديدة الأهمية.

١- يُنظر: هيرشبرغ: (ص٣٤).

ب- كيف ينبغي أنْ ندرسَ تاريخَنا وتراثَنا؟

إنَّ كتابة (تاريخ طِبِّ العيون) عند العرب يجب أنْ تبدأَ من حيث انتهى العلماء والمستشرقون ومؤرِّخو الطِّبِّ، وذلك لضرورات توفير الجهد، وللاستفادة من أعمال هؤلاء العلماء الضَّخمة ومن استنتاجاتهم الصَّحيحة.

وأعرِضُ هنا المصادر الرَّئيسة والمُهمَّة التي تُمَكِّنُ الباحثَ من أنْ يبدأَ حقًّا من حيث انتهى العلماء الذين شقُّوا طريق هذا العلم، الذي هو (كتابة تاريخ طِبِّ العيون)، و(تحقيق التُّراث الطِّبِّيّ العربيّ في علم العين) وما يتفرَّعُ عن ذلك من (علومٍ) لها علاقةٌ (بالاصطلاحات) الطِّبِّيَّة الفنيَّة، على سبيل المثال.

هذا العرض ليسَ عرضًا نظريًّا، بل نتيجةَ تجربةٍ شخصيَّةٍ، فقد اعتمدتُ على هذه المصادر الأربعة في دراستي لـ(تاريخ طِبِّ العيون العربيّ).

أولًا- هيرشبرغ: كتَبَ الأستاذ هيرشبرغ تاريخَ طِبِّ العيون بدءًا من الحضارات القديمة وانتهاءً بالعصر الحديث، وخصَّصَ للعرب جزءًا مُهمًّا من الكتاب.

والأستاذ هيرشبرغ العالمُ بتاريخ الطِّبِّ عند الإغريق قام بعملٍ تاريخيٍّ[1]، فقد تعاون مع زميلين له من المختصِّين بالعربيَّة في قراءة المخطوطات التي تسنَّى له أنْ يحصلَ عليها، هما ليبرت ومِتفوخ[2].

١- وكان عمله الأوَّل هو أنْ ترجَمَ الجزء المتعلِّق بأمراض العين من كتاب (القانون) لابن سينا، وترجم كتاب (تذكِرة الكَحَّالين) لعليّ بن عيسى، ثمَّ ترجَمَ أعمالًا أخرى أو جزءًا من أعمالٍ، إلى جانب مقالاتٍ علميَّةٍ قيّمةٍ قدَّمها إلى أرقى المحافل العلميَّة في برلين، وكان أمينًا نزيهًا في أحكامه، مخلصًا للحقيقة وللحقِّ

١- لخّص طبَّ العيون الإغريقيّ وبيَّن كيف وصل إلى العرب.

٢- (E. Mittwoch،J. Lippert) .

وللتاريخ، وبذلك أنصف العلماءَ العرب وبَوَّأهم المكانةَ التي يستحقون في تاريخ الطِّبِّ.

٢- وكان عمله الثاني هو أنْ كتَبَ عن المؤلَّفات العربيَّة التَّعليميَّة في طِبِّ العيون، ثمَّ كتَبَ بعدها (تاريخ طِبِّ العيون عند العرب).

وتعدُّ أعمال هيرشبرغ أهَمَّ ما كُتِبَ عن تاريخ طِبِّ العيون عند العرب، ولم يصل أيُّ مؤرِّخٍ من مؤرِّخي الطِّبِّ إلى سويَّة هيرشبرغ في الإحاطة بالموضوع، ولذلك فقد ظَلَّ عملُهُ -حتى الآن- العملَ الوحيد والمعتمد عند كُلِّ مؤرِّخي طِبِّ العيون.

لم يترك هيرشبرغ جملةً واحدةً كتبها ابن سينا أو عليّ بن عيسى إلَّا وبحث عن أصلها اليونانيّ، وعرف من أين أخذها المؤلِّف العربيُّ، وقارن بين عبارة الأستاذ أو الأساتذة الإغريق وعبارة الأستاذ أو الأساتذة العرب[١].

ثانيًا- مايرهوف: عاش مايرهوف جزءًا من حياته في القاهرة، حيث مارس طِبَّ العيون، وعمل باحثًا في المخطوطات والتُّراث الطِّبيّ العربيّ، وقد اشتغل على موضوعاتٍ أخرى في تاريخ الطِّبِّ العربيّ -كالأدوية على سبيل المثال- لكنَّه كان سعيد الحظ إذ عثر في مكتبة (تيمور)[٢] على عددٍ من المخطوطات المُهمَّة التي لم يكن هيرشبرغ يعرف أماكن وجودها، ولا عجب فمكتبة (تيمور) مكتبةٌ خاصَّةٌ في ذلك الوقت، ولم يكن أحدٌ قد كتب عن محتوياتها في أيام هيرشبرغ.

١- وعلى ذلك فقد بدأْتُ من حيثُ انتهى هيرشبرغ وصرْتُ قادرًا -بفضله- على معرفة الأصل اليونانيّ للعبارة العربيَّة في مجال عَملي على المؤلِّفين الجدد الذين لم يتمكّن هيرشبرغ من رؤية أعمالهم.

٢- أحمد تيمور باشا، أحد علماء مصر.

وبين مخطوطات (تيمور) وجد مايرهوف مجموعًا فيه بعض كُتُب (علم العين) أهمُّها كتاب حنين (العشر مقالاتٍ في العين) وكتاب عمَّار بن عليّ الموصليّ (المُنتخب في علاج أمراض العين)، وفيه أيضًا كتابان لابن ماسويه[1].

نشر مايرهوف كتابَ حنين (العشر مقالاتٍ في العين) وتعرَّفَ على مصدر المعرفة عند حنين، وحقَّقَ الكتاب وقال عن كُلِّ مقالةٍ من مقالات الكتاب: إنَّها مأخوذةٌ من الكتاب الفلاني لجالينوس، أو من كتابِهِ الآخر، أو من مجموعةٍ من كتبه.

وكما ترجَمَ هيرشبرغ (القانون) و(التَّذكِرة) إلى الألمانيَّة؛ فقد ترجم مايرهوف (العشر مقالات) إلى الإنجليزية، لكنَّه –على ما يبدو– اكتفى بتعليقات هيرشبرغ على العبارات التي كتبها العرب، أو أنَّ وقته لم يسمح له بمقارنة عبارات حنين بعبارات جالينوس، فكان تحقيقه أقلَّ من حيث القيمة العلميَّة من تحقيق هيرشبرغ.

ثالثًا– بيرغشترسر: كتَبَ حنين رسالةً بعنوان: (ما تُرْجِمَ من كُتُب جالينوس بعلمه وما لم يُتَرْجَم) وذلك بطلبٍ من بعض علماء بغداد السُّريان.

وقد ضاعت هذه الرِّسالة، لكنَّه فيما بعد أعاد كتابتها بالعربيَّة من الذاكرة، فكانت أهمَّ وثيقةٍ وصلت إلى عصرنا حول مؤلَّفات جالينوس في الطِّبِّ.

وحنين هنا يعرِضُ كُتُبَ جالينوس واحدًا واحدًا ويعطي فكرةً عن أجزائها، ثمَّ يقول: كيف تعامل معها؟ وكيف ترجمها؟ ولمن؟ وهكذا...

وقد حقَّقَ الأستاذ بيرغشترسر هذه الرِّسالة وترجمها إلى الألمانيَّة، وهي مرجعٌ مُهمٌّ للتعرّف على أعمال جالينوس، ولعلَّها المرجع الأهمُّ.

رابعًا– سزكين: كَتَبَ الأستاذ فؤاد سزكين كتابَهُ عن تاريخ التراث العربيّ، وجاء الطِّبُّ في المجلد الثالث، وفيه شرحٌ وافٍ لمصادر الطِّبِّ العربيّ بشكلٍ لا مجال فيه

١– (دَغَل العين) و(معرفة مِحْنة الكَحَّالين).

للتخمين أو التَّقدير أو الافتراض، فالأستاذ سزكين يستند على معرفةٍ عميقةٍ بأعمال كُلِّ من اشتغل على تاريخ العلم العربيّ، ونتائجُ هذه الجهود التي بذلها عشرات العلماء موجودةٌ في كتابه، وقد عرضها عرضَ العارف القدير[1].

٨- طِبُّ العيون في القرن التاسع الميلاديّ: ١-١-٨

في القرن نفسه الذي اشتغل فيه حنين اشتغل أيضًا ابن ماسويه، وعليّ بن سَهْل (رَبَّن) الطَّبريّ، وثابت بن قُرَّة.

١- توفي ابن ماسويه عام (٨٥٧م)، وكان حنين قد بدأ بمحاولةٍ لدراسة الطِّبِّ عند ابن ماسويه، لكنَّ هذه المحاولة فشلت، لذلك درس حنين اليونانيَّة بعد أنْ غادرَ بغداد وقام برحلاته إلى الشَّام والإسكندرية وبلاد الرُّوم، ودرس الطِّبَّ النَّظريَّ في هذه الفترة وفي الفترة التي تلتها حينما استقرَّ في بغداد، وبدأ بعملية دراسة تراث جالينوس الطِّبيّ وترجمته وإعادة إخراجِهِ مختصرًا.

ولا نعرفُ متى كتب ابن ماسويه كتابيه في علم العين: (دَغَل العين) و(معرفة مِحْنة الكَحَّالين).

ونأمل من وراء تحقيق هذين الكتابين أنْ نتمكَّنَ من تقدير زمن ظهور كُلِّ واحدٍ منهما، هل جاء قبل ظهور كتابي حنين؟ أم بعد ذلك؟ أم غير ذلك؟

٢- أمَّا كتاب **عليّ بن سهل (رَبَّن) الطَّبريّ** (فردوس الحكمة) فهو كتابٌ أشبه بالموسوعة العلميَّة[2]، لم ينل (علم العين) فيه إلَّا حصّةً ضئيلةً، وعلى الرَّغم من اختصارها فهي تشي بأصلها، ذلك أنَّها متأثِّرةٌ بأعمال حنين.

وعلى الرَّغم من أنَّ عليًّا بن سهل قد خصَّصَ جزءًا من كتابه (للطِّبِّ الهنديّ) فإنَّ هذا الجزء لا يُغني معرفتنا عن طِبِّ العين عند الهنود.

١- وقد تكرَّم الأستاذ سزكين فأهداني الكتابَ ودعاني إلى معهده في فرانكفورت عام (١٩٨٢)، وأكرمني أيَّما إكرام، ووضع مجموعةَ كُتُبِ المعهد، ومجموعته الخاصَّة من صور المخطوطات بتصرفي.

٢- يحتوي الكتاب على علومٍ عديدة من حقل الطِّبِّ (علم الجنين)، ومن حقولٍ أخرى كـ(علم الفلك) مثالًا.

٣- وأمَّا **ثابت بن قُرَّة** فقد ذكر بنفسه[١] أنَّه لم يؤلِّف أيَّ كتابٍ في الطِّبِّ. لكنَّه نقل عددًا من كُتُبِ جالينوس إلى العربيَّة بأسلوبه الخاصِّ نقلًا مختصرًا، لكي يضعَ هذه الكتُب بين أيدي المتعلمين.

٤- **حنين:**

كيف تمكَّن حنين من جمع تراث جالينوس في علم العين، وكيف نسَّقه ونشره؟

لقد عَرَفَ حنين مؤلَّفات جالينوس في الطِّبِّ خير معرفةٍ، ولا شكَّ أنَّ التاريخ لم يترك اسم عالمٍ آخر خبيرٍ بتراث جالينوس في مستوى حنين.

كان حنين قد جمع كُلَّ ما استطاع جمعه من مخطوطات كُتُبِ جالينوس الطِّبِّيَّة، وقارنها بعضها ببعض فعرف أيّها يمكن أنْ يعتمدَ عليه.

وكان أيضًا يعرف التَّرجمات السُّريانيَّة أو العربيَّة لبعض هذه الكتب، وقد قرأها إمَّا لاهتمامٍ شخصيٍّ وبغرض الاطّلاع، وإمَّا بقصد إصلاح التَّرجمة بتكليفٍ من أحد العلماء المعنيين وقد علَّقَ على هذه التَّرجمات وقيَّمها ونقد بعضها.

أمَّا كتُبُ جالينوس فقد ترجم معظمَها إلى السُّريانيَّة أو إلى العربيَّة، وبذلك عرف أماكن وجود المادَّة العلميَّة التي تهمُّ علم الكِحَالة، والتي يبحثُ عنها أطبَّاء العيون.

١- آراء ودراسات: (١٧٣/٢): "لعَلَّ أهمَّ ما نجده في هذا الكُنَّاش [كُنَّاش الكشكري] هو ما أورده يعقوب الكشكري عن لسان ثابت بن قُرَّة في موضوعٍ طريفٍ في تاريخ الطِّبِّ.
يقول: وذكر يعقوب أنَّه لمَّا كان يقرأ على ثابت بن قُرَّة المنطق سأله عن هذا الكُنَّاش هل هو وضعه للمعتضد؟ فقال: إنّي لم أضع هذا الكُنَّاش ولا عملت قط كُنَّاشًا وأظن أنَّ بعض المحدثين وضعه ونحله إليَّ".
- ينظر كُنَّاش الكشكري: (ص١٣٥).
- يُنظر آراء ودراسات: (١٦١/٢): "كُنَّاش الكشكري".

وفي هذه الأثناء، وعلى مدى ثلاثين عامًا قام بكتابة تسع مقالاتٍ في تشريح العين أو في وظائفها أو في نظرية الإبصار أو في أدوية العين المُفردة، وهكذا.

وبعد ثلاثين عامًا جمع حُبيش هذه المقالات التي لم تكن متناسقةً من حيث حجمها، وكذلك من حيث دقَّتها العلميَّة، وأعطى هذه المقالات إلى خاله وأستاذه حنين، فأضاف إليها مقالةً عاشرةً ثمَّ أخرج الكتاب الذي يسمِّيه ابن أبي أصيبعة (العشر مقالاتٍ في العين).

وفي هذه الأثناء واعتمادًا على معارفه الواسعة في (علم العين) كتب حنين كتابه (المسائل في العين) للمتعلِّمين، بمثابة كتابٍ تدريسيٍّ.

ونتيجةً لأعمال حنين صار (طِبُّ العيون) الإغريقيُّ متوفّرًا لقرَّاء العربيَّة بشكلٍ منسَّقٍ وبمنهجٍ علميٍّ، وصار كافيًا للراغبين في الاطِّلاع على المادَّة العلميَّة النَّظرية اللازمة للكَحَّال.

ولم تعد معرفة اللُّغة اليونانيَّة ضروريةً لدراسة طِبِّ العيون.

وبذلك –أيضًا– استغنى المتعلِّمون عن العودة إلى ترجمات كُتُب الإغريق القديمة، التي لم تكن بجودة ما كتبه حنين لا من حيث دقَّتها ولا من حيث شمولها ولا من حيث أسلوب عرضها.

فإذا أردنا الاشتغالَ على نَصٍّ في طِبِّ العين من مؤلَّفات القرن التاسع، فيمكن لنا أنْ نعتمد على أعمال حنين لفهم الموضوع الذي نشتغل عليه، ففهم الموضوع شرطٌ للقيام بالتَّحقيق.

وتتجلَّى أهمية هذا (الفَهْم) إذا كانت المخطوطات التي نشتغل عليها غير واضحةِ الخط أو تعاني من نقصٍ هنا أو هناك، أو إذا كانت بعض الكلمات فيها صعبة القراءة، وبخاصَّةٍ الكلمات ذات الدَّلالة الاصطلاحيَّة.

لم يكن العمل الذي قام به حنين عملًا عاديًّا، لقد كان عملًا فريدًا بكُلِّ المقاييس.

لقد تعلَّمَ حنين اليونانيَّة وأتقنها، وصار حُجَّةً فيها وبخاصَّةٍ في اصطلاحاتها الطِّبِّيَّة، سافر إلى آسيا الصغرى التي كانت يومها من ممتلكات بيزنطة، وسافر كذلك إلى الإسكندرية وأغنى معرفته اللُّغوية، واطّلع على أماكن وجود المخطوطات الطِّبِّيَّة الإغريقيَّة وحصل على بعضها.

ودرس هذه المخطوطات، وعرف قيمة كُلِّ مخطوطةٍ منها، وحينما ترجمها قام بعملٍ يشبه تحقيق المادَّة المتوفرة بين يديه، وبالنتيجة صار على معرفةٍ دقيقةٍ بالمحتوى العلميّ –النَّظريّ والعمليّ– لطبِّ العيون الإغريقيّ.

وقام بعد ذلك بتنسيق هذا العلم وأعاد تبويبه ثمَّ كتبه بأسلوبٍ علميٍّ متميّزٍ[1].

١– شهادة مايرهوف في كتاب (العشر مقالات): مقدمة مايرهوف لتحقيق العشر مقالات: (ص٢٩):

"وكان أسلوب حنين في الترجمة رائعًا ووافيًا بأغراض علم اللُّغات الحديث تمامًا، وكان ينتقد في عنفٍ تراجم المتقدمين وتراجمه هو أيضًا لمَّا كان شابًّا، وقد ترجم معظمها من جديد...".

(مقدمة مايرهوف لتحقيق العشر مقالات): (ص٦):

"...لقد اقتبس حنين بحذق ومهارة جميع ما ورد في كتب جالينوس من الفقرات الخاصَّة بالعين وأمراضها وأنشأ منها هذا الكتاب المؤلَّف على الطريقة العلميَّة والذي تغلب فيه النظريات على العمليات. وعلى الرَّغم من هذا فإنَّ هذا الكتاب قد ظفر بإعجاب جميع أطبَّاء العيون العرب وسواهم من الأطباء المتأخرين.

إنَّه بداية طبّ العيون العربيّ... وأظن أنَّ كتاب حنين المسمَّى (المدخل) وكتابه المُسمَّى (مسائل الطِّبِّ) قد اتخذا أساسًا لمؤلَّفات الطِّبِّ العامّ".